مجلة العلوم الأنسانية
Journal of Human Sciences
www.Suj.sebhau.edu.ly
Received 1/1/2016 Revised 1/5/2016 Published online 11/1/2017

المشاكلة الصوتية وبنية النصّ

* عبد الوهاب خلف الله إمبية
عضو هيئة التدريس بكلية الاداب /جامعة سبها

المُستخلص

يعرض هذا البحث لقضية بنية النص، ويسلط الضوء على المشاكلة الصوتية، كونها من أبرزالقرائن المعينة على فهم النص وتفسيره تفسيراً صحيحاً، والمشاكلة الصوتية هي جزء من النظام العام للغة تنتج عن اتفاق يوجد بين جميع الأعضاء النطقية، بحيث لا نجد صوتاً مناوئاً لصوت مجاور، ولا عضواً منافياً في وضعه النطقي لعضو آخر، وإنَّما تتعاون الأعضاء في خلق نوع من الانسجام الحركي في أثناء العملية النطقية، ومثله انسجام في حروف الكلمة والجملة، ومن ثَمَّ إلى النص بكامله، فلا يكون هناك صوت شاذ عن آخر، ولا حركة مناقضة لحركة أخرى، فيؤدي ذلك بالطبع إلى نوع من التوازن والتوافقفي بنية النص بكامله.

*عضوء هيئة التدريس بكلية الاداب /جامعة سبها

مقدمة

أكدت الدراسات اللغوية الحديثة أن هناك مستوىً سادساً بجانب المستويات الخمسة (الصوتي، والصرفي، والنحوي، والمعجمي، والدلالي) يتمثل في المستوى (النصّي) ذلك المستوى الذي لم تتوقف اهتماماته عند حد تحليل الجملة بصفتها الوحدة اللغوية الكبرى، بل عُدّ النص الوحدة اللغوية الكبرى للتحليل اللغوي.(1) فدراسة ظاهرة المشاكلة تنطوي تحت جماليات الصوت، وهو الإحساس الجمالي الحركي، والتخيل الجمالي الحركي، لنصل من ثمَّ إلى التلاؤم بين المعاني من حيث التناسق، والتوافق الصوتي المتمثل في المشاكلة في بنية النص.

إنَّ شيوع مصطلح المشاكلة في هيكل الدراسات اللغوية قد أدى إلى شيوع العديد من المصطلحات القريبة منه في الدلالة مثل: المناسبة والانسجام، والتوافق، والإتباع، وكلها تشترك في حيازتها دلالة عامة في مجملها، فهي تشير إلى أنَّ النظام الصوتي في الدراسات اللغوية يأتي تبعاً لقانون التوازن الإيقاعي، ومن ثم أُطْلِقَ على اللغة العربية أنَّها اللغة الموسيقية (2). أما كيفية حدوث المشاكلة فذلك نابع من طبيعة الوحدات الصوتية داخل الكلمة. فالوحدات الصوتية تختلف في قيمتها بحسب طولها أو قصرها، أو قوتها أو ضعفها، أو كونها ساكنة أو متحركة ، وكل هذا يؤدي إلى أنَّها لا يمكن أن تتساوى في قيمتها داخل الكلمة الواحدة ، مما يؤدي أحياناً إلى إحداث بعض التناقض فيما بينها ، فتلجأ اللغة إلى التخلص من هذا التناقض عن طريق ظواهر المشاكلة والانسجام (3)

تعريف المشاكلة واستعمالاتها ً:

يعرف ابن منظور (ت711ه) المشاكلة معجمياً فيقول: هي المماثلة والمشابهة، فالشكل: الشبه والمثل، ومن الممكن أن يتشاكل الشيئان فيشاكل أحدهما الآخر، ويقال: فلان شبه والديه أو من أحدهما، أي شكل وأشكله، وشاكل، ومنه قوله تعالى: "وآخر من شكله أزواج" من سورة (ص) الآية 58 (حفص)، والمشاكلة: الموافقة والتشاكل مثله (4).

وقد أورد الزجاج (ت 315ه) في إعرابه للقرآن مبحثاً سماه: ما جاء في التنزيل من ازدواج الكلام والمطابقة والمشاكلة(5) وهو مترادفاتٍ لمسمىً واحد وهي المشاكلة، وقد استخدمها لمستويات اللغة عموماً الصوتية واللفظية والنحوية والدلالية.

أما العلامة اللغوي أبو الفتح عثمان بن جني (ت 392 ه) فيفسر المشاكلة اصطلاحياً بأنَّها الصلة بين الألفاظ ودلالاتها، فالألفاظ عنده وضعت على صورة مناسبة لمعناها، فعقد فصلاً في خصائصه أطلق عليه "تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" وفصلاً سماه "إمساس الألفاظ أشباه المعاني" وقد أورد ابن جني فيهما لفظ المشاكلة فقال: (("فأمَّا مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع)) (6) فقد لاحظ ابن جني أنَّ العرب كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها، فيعدلونها بها، ويحتدونها عليها. فعرف هذا العالم اللغوي الجليل أن لكل حرف صوته صفة ومخرجاً، مثلما له إيحاؤه دلالة ومعنى.

ويعد ابن جني إماماً للقائلين بوجود تلك المشاكلة والصلة بين الأصوات ومعانيها، فقد أراد في خصائصه أن يكشف عن تلك الصلة الخفية بين الأصوات ومدلولاتها، ففي فصل عنوانه (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) يرى ابن جني أنَّ الأصوات المتقاربة مخرجاً غالباً ما تتقارب معانيها وتتشاكل، وأنَّ أكثر كلام العرب عليه(7)، فأورد في هذا الباب كثيراً من الأمثلة المتعلقة بهذا الضرب من المماثلة الصوتية، من ذلك قوله تعالى: "إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً" أى: تزعجهم وتقلقهم، فهذا في معنى تهزهم هزاً، والهمزة أخت الهاء، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين، وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة، لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز، لأنك قد تهز ما لا بال له، كالجذع وساق الشجرة ونحو ذلك، ومنه الأسف والعسف، والأسف، فالعين أخت الهمزة ... فقد ترى تصاقب اللفظين لتصاقب المعنيين(8)

ومن ذلك تركيب (ح م س) و (ح ب س) قالوا: حبست الشئ، وحمس الشر إذا اشتد، والتقاؤهما أنَّ الشيئين إذا حبس أحدهما صاحبه تمانعا، وتعازّا، فكان ذلك كالشرّ يقع بينهما(9).

وقال أيضاً: واستعملوا تركيب (ج ب ل) و (ج ب ن) و (ج ب ر) لتقاربهما في موضع واحد، وهو الالتئام والتماسك، ومنه

الجبل لشدّته وقوته، وجبُن إذا استمسك وتوقف وتجمع، ومنه جبرت العظم ونحوه أي قويته(10).

ومنه أيضاً (ع ل م) في العلامة والعلم، فقال: مع ذلك بيضة عرماء، وقطيع أعرم إذا كان فيهما بياض وسواد (11)

ومن ذلك سحل، وصهل، والصاد أخت السين، كما أن الهاء أخت الحاء فقالوا أيضاً: حلف، وحرم، فهذا للقشر وهذا للمقطع، وهما متقاربان معنى متقاربان لفظاً، لأن ذلك من (ح ل ف) وهذا من (ح ر م) (12)

وفي فصل عنوانه (إمساس الألفاظ أشباه المعاني) ينبه ابن جني إلى أنواع أخرى من المشاكلة الصوتية، وهي حكاية الأصوات الطبيعية والصيغ الصرفية، وحكاية أصوات الهجاء فقال: ((اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له، والاعتراف بصحته)) (13) ، وهذا النص عظيم الفائدة شديد الإيحاء، وحسبُنا أننا عرفنا منه أن هذه المشاكلة أو المناسبة الطبيعية بين الأصوات ومعانيها قد تنبه إليها علماء اللغة القدامى، كالخليل وسيبويه الأمر الذي سمح لابن جني أن يقول مقالته السابقة.

وأورد ابن جني في ذلك أن الخليل بن أحمد (ت 175هـ) قال: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدّاً فقالوا: صرَّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صرصر (14).

ولا شك في أن هذا الصرّ، وهذه الصرصرة لصوت الجند بوالبازي هي المشاكلة لصوت الحدث.

وقال ابن جني أيضاً في هذا الصدد: إن سيبويه قال في المصادر التي جاءت على (الفَعَلان) أنها تأتي للاضطراب والحركة، نحو النَّقَزَان (15)والغلَيَان والغثَيَان فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال(16) وكذا هي عبارة سيبويه في الكتاب: (إن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك: النَّزَوان، والنَّقَزَان)) (17)، والقفزَان، وإنمَّا هذه الأشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع، ومثله العَسَلَان، والرَّتَكَان...، ومثل هذا الغَيَّان لأنه زعزعة وتحرك، ومثله الغَثَيَان لأنه تجيش نفسه وتثور، ومثله الخَطَرَان، واللَّمَعَان، لأنَّ هذا اضطراب وتحرك، ومثل ذلك اللَّهَبَان، والوهَجَان لأنه تحرك الحرّ وتثوّره، فإنما هو بمنزلة الغَلَيَان(18)

وعقب ابن جني على ذلك بقوله: فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال، فقد وجد من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حذاه الخليل وسيبويه، ومنهاج ما مثّلاه، ومنه أنَّك تجد المصادر الرباعية المضعَّفة تأتي للتكرير مثل الزعزعة، والقلقلة، والصلصلة، والقعقعة، والجرجرة، والقرقرة.

وكذا أنك تجد (الفَعَلى) في المصادر والصفات إنما تأتي للسرعة نحو:البَشكَى(19)، والجمَزَى(20)، والولقى(21) ،ومن ذلك أيضاً: أنهم جعلوا (استفعل) في أكثر الأمر للطلب، نحو: استسقى، استطعم، واستوهب، واستصرخ(22). فرُتِّبت في هذا الباب الحروف على ترتيب الأفعال.

ومن ذلك أنَّهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبّر عنها فيعدلونها بها، ويحتذونها عليها، فجعلوا تكرير العين كذلك في المثال دليلاً على تكرير الفعل، فقالوا: كسّر، وقطّع، وفتّح وغلّق؟ وذلك أنَّهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني، فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوّة الفعل(23).

هذا ويبقى ابن جني رائداً للغويين القدامى والمحدثين الذين لاحظوا هذه الظاهرة (المشاكلة اللغوية) وقرروها. وقد صرح ابن جني عن تلك العلاقة القوية بين الأصوات وأحداثها، وما تحدثه هذه العلاقة من مشاكلة فقال: (فأمّا مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم) (24).

فقد كشف لنا ابن جني تلك المشاكلة، والصلة الخفية بين الأصوات ودلالتها، فظهر له الآتي:

1- أنّ بعض الألفاظ له قوة إيحائية تتسم بها بعض حروفها الهجائية أي: أنَّ لها دلالة معنوية، ومشاكلة تستوحي من جرسها وصفاتها، كالساحة، والأبطح والرحراح للواسع في كل منها، لأن الحاء من خواصها السعة والانبساط.

2- أن بعض الألفاظ قد تتلاقى في معناها، كالمسك والصّوار للرائحة الطيبة التي تجذب في كل منهما الشّام إليها! تمسك به من حاسة شمه(25).

3- أن الألفاظ التي تشترك في أصولها تشترك في معناها العام كما في تقليبات (جبر) الدالة على القهر والشدّة، وتقليبات (سلم) الدالة على الملاينة والاصطحاب(26).

4- أنَّ الاشتراك في بعض الحروف يكفي أحياناً للاشتراك في الدلالة مثل: (دمث، دمثر) فالأولى بمعنى سهل ولان،

ومنها دماثة الخلق أي سهولته، والثانية للسهل من الأرض، وهذه الظاهرة ليست مقصورة على الألفاظ التي اتحدت أصواتها، وإنما تكون أيضاً حين تتقارب الأصوات في مخارجها أو صفاتها، فقالوا: الغدر كما قالوا الختل، والمعنيان متقاربان واللفظان متشاكلان ... فالغين أخت الخاء، والدال أخت التاء، والراء أخت اللام ...، وقالوا: أفل كما قالوا: أغبر، لأن أفل غاب، والغابر غائب أيضاً، فالهمزة أخت الغين، والفاء أخت الباء، واللام أخت الراء(27).

5- أنَّ الأصوات وُضعت على صورة مناسبة لمعناها "وقد نبّه عليه الخليل، وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول" فصيغة (فَعَلان) تفيد الاضطراب كالغَلَيَان، وصيغة (فعلل) تفيد التكرير مثل: صرصر البازي أي: كرر في تصويته، وصيغة (فَعَلي) تفيد السرعة كجَمَزى، وصيغة (فعّل) تفيد القوّة كقطّع، وفتّح(28).

وتتشاكل الحروف أيضاً في اللفظ لصوت الحدث في مثل خضِم وقضم، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثّاء، وما كان نحوهما من المأكول الرطب، والقضم للصلب اليابس، نحو: قضمت الدابة شعيرها ونحو ذلك، وفي الخبر يُقال: (قد يدرك الخضم بالقضم)، أي قد يدرك الرخاء بالشدّة، واللين بالشطف، وعليه قول أبي الدرداء: (يخضمون ونقضم والموعد الله)(29) فقد كان سرّ اختلاف المشاكلة بين صوتي الخاء والقاف بسبب رخاوة صوت الخاء لأنَّها صوت احتكاكي، فهو يتشاكل مع الشئ الرطب الذي يسهل أكله، وإلى صلابة القاف لأنَّها صوت انفجاري، ومن ثمَّ تتشاكل مع أكل اليابس الذي يصعب قطمه، قال ابن جني: فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث(30).

ولذلك فإنَّ الشاعر عندما عبَّر عن مرارة العيش، عبّر عنها بقضم الجلمد، وهو صخر يابس فقال:

والموتُ خيِّر من حياةٍ مُرّةٍ ∴ تُقضَى لياليها كقَضْمِ الجُلْمدِ

ومثله النضح والنضخ، فالنضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى منه في التعبير عن حركة الماء، قال تعالى: "فيهما عينان نضّاختان" أي: فوّارتان بالماء، فالنضخ بالخاء أكثر من النضح بالحاء، فالحاء رقيقة للماء الضعيف، والخاء غليظة لما هو أقوى منه.

وقد توافرت طائفة من الألفاظ الدقيقة عند إطلاقها في اللغة العربية، وتتميز هذه الدقة بكون اللفظ يدل على نفس الصوت، والصوت يتجلى فيه ذات اللفظ، بحيث يستخرج الصوت من الكلمة، وتؤخذ الكلمة منه، وهذا من باب مصاقبة الألفاظ للمعاني بما يشاكل أصواتها، فتكون أصوات الحروف على سمت الأحداث التي يراد التعبيرعنها.

وقد عرف السيوطي (ت911هـ) المشاكلة اللغوية بعد أن بيَّن فائدتها فهي عنده جعل أجزاء الكلام آخذاً بأعناق بعض، فيقوي بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء (31)، ويتأتى ذلك بالتغيير في أنظمة الجمل تقديماً وتأخيراً، حذفاً وذكراً، فصلاً ووصلاً، وقد يكون هذا التغيير على حساب القواعد المتعارف عليها كي يكون الكلام وفقاً لسابقه ولفقاً للاحقه.

وموضوع العلاقة بين الألفاظ ومعانيها قد تناوله أيضاً بوجه من الوجوه أو بصورة من الصور عدد من اللغويين المحدثين أيضاً، منهم الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه (دلالة الألفاظ) والأستاذ محمد المبارك في كتابيه (فقه اللغة، وخصائص العربية) ولكن مع اختلاف بينهما في المنهج وفي النتائج التي توصل إليها كل منهما.

فقد اكتشف هؤلاء العلماء في طائفة من الألفاظ العربية صلة بين ألفاظها ومعانيها، فبيَّنوا أنَّ العربي كان يربط بين الصوت والمعنى، فجعلهما متشاكلين متماثلين، فدل على المعنى الضعيف بأصوات ضعيفة وعلى المعنى القوي بأصوات قوية، وهكذا جعل العربي الصوت في مقابل المعنى المناسب له، وتمتد المناسبة من الحرف الواحد إلى حرفين وإلى جميع حروف الكلمة، فالصوت يرتبط بالمعنى وطريقة الأداء لها داخلٌ في التعبير عنه، وهذا وإن كان خاصاً ببعض الألفاظ وطرق أدائها، فإنَّ له أهمية في كشف جانب حيوي من جوانب دلالة الألفاظ.

مصطلح المشاكلة إذن مصطلح يختبئ وراء معانيه الظاهرة، فلابد لها من متلقٍ يفهمها في سياقها، ويتصرف وفق هذا الفهم، وكذلك تقتضي التداولية من المشاكلة أن يكون قائلها

السامع، وسامعها القائل، فيكون على دراية كبيرة بخصائص اللغة، ومميزات ألفاظها، ولطائف معانيها، ودقائق دلالاتها، كما تقتضي منها خبرة واسعة بتشكلات أساليبها، وتغيرات صيغها، وتلون تعابيرها التي تتكون من ألفاظها المختلفة، والمتنوعة والمتجانسة، والمتعددة، ويمكن أن تتعدد دلالات أحدها فيتحول إلى رمز(32).

والمشاكلة في حقيقتها ظاهرة لغوية تتحاور فيها الأصوات، والدلالات قبل أن تكون لوناً من ألوان البديع للتزيين والتحسين فقط، فالمشاكلة هي: أن يطلق اللفظ مشابهاً للفظ يقابله، مخالفاً في المعنى، فهي تكون إذن بتشابه اللفظيين لتجاورهما، ولكن المعنى يكون شيئاً آخر.

فهي مجاز لغوي علاقته المجاورة، وكذلك الوقوع في الصحبة، وقيل ليست حقيقة ولا مجازاً، أما الأول فظاهر، وأما الثاني فلأنَّ علاقة المجاورة المعتبرة في المجاز إنَّما هي المجاز بين مدلول اللفظ المتجوز به، ومدلول اللفظ المتجوز عنه لتقاربهما في الخيال، وليست كذلك المشاكلة، إذ ليس فيها إلا مجرد ذكر المصاحبة بلفظ غيره لاصطحابهما في الذكر(33)، في مثل قوله تعالى:((وجزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلُها)) (34) فالجزاء على السيئة لا يكون إلا بسيئة حقيقية، لكنه يسميه سيئة ليناسب السيئة التي جاء بها المخلوق،

المشاكلة الصوتية وبنية النصّ

تمثل المشاكلة الصوتية عنصراً أساسياً في بناء القصيدة، فهي تقوم على أساس تتابعٍ صوتيٍّ تتضام فيه الأصوات بطريقة معينة، وتقودنا مؤاخاة الأصوات وتقاربها في النص إلى محاكاة اللفظ صوت الفعل، مما يجعل فكرة التوازيات الصوتية، والتشاكلات الدلالية هي التي تفسر علاقة الدوال بالمدلولات، وشبكتها في القول الشعري، ومحاكاة الواقع تلزم الشاعر ألاّ يتجاوز الواقع بما هو عليه، لأنَّ المحاكاة معيار يحدد قيمة الحُسن والقبح في النص، وما على المتلقي سوى الاحتكام العقلي للون المماثلة بين صورة الشئ في النص ومقابلها في الواقع.

ويقرر الدكتور صلاح فضل في بلاغة الخطاب وعلم النص ملاحظة هامة ينبغي أن ندرجها في الإطار التحليلي للأشكال، وهي ضرورة استخدام القراءة الجدولية للنص الأدبي، وهي قراءة تمضي في المستويين: الأفقي والرأسي له، ولا تكتفي بإحصاء الأشكال البلاغية في النص وقياس درجة كثافتها وتعالقها، وإنَّما تأخذ في حسابها أيضاً ظواهر الازدواج والتوازي الدلالي، بحيث ترصد ترداد وترجيع العناصر الصوتية والدلالية في مواقع موزعة على النص بأكمله، مما يخلق شبكة تشاكله البنيوي، ويتبين لنا حينئذٍ أن النص الشعري على وجه الخصوص لا يدين في وجوده للأشكال البلاغية فحسب بقدر ما يدين لبنيته ذاتها ((وهي تلك البنية المركبة من الازدواج، والتشاكل والارتباط الحميم بين الصوت والدلالة))(35).

إذن فإنَّ القول بالقيمة التعبيرية للصوت يعني أنَّ الأصوات مدعوّة إلى تقديم بعض القيم الدلالية في النص دون أخرى، انطلاقاً من خصائصها الذاتية، أي أنَّها علامات متعددة الدلالة(36).

إنَّ الحديث عن المشاكلة الصوتية في النص يتطلب الحديث عن التجربة والرؤية والموقف الذي يتضمنه النص، ومن ثم النفاذ إلى ما وراء السطح للتعرف على تلك العلاقة الخفية بين التشكيل الصوتي، والمحتوى الشعري، وهو أمر قد يكون الإسهاب فيه تطويلاً غير ذي فائدة، وعلى النقيض قد يكون الإيجاز أو الإشارة أكثر صدقاً وأبعد عن التعسف، وتحميل النص فوق ما يحمله شكلاً وموضوعاً.

وقد حاولت في هذه الدراسة أن أفي بالمطلوب، فجمعت بين الدراسة النظرية والتطبيقية، لتكون الدراسة أكثر وفاءً بالمقصود.

وفي ضوء هذا كله أردت أن أحلل للمشاكلة الصوتية في علاقتها ببنية النص الكلية مطبقاً على نصٍ لشاعرٍ جاهلي هو عَبِيد بن الأبرص.

يقول عبيد بن الأبرص مستهلاً قصيدته بوصف البرق والمطر والعاصفة، ثم يفخر بشعره وبنفسه العفيفة الكريمة، ويهجو بعض خصومه لما هم عليه من مساوئ الأخلاق فقال من بحر الوافر:

1. أرِقْتُ لِضَوءِ بَرْقٍ في نَشَاصِ تلألأَ في مُمَلَّأَةٍ غِصَاصِ (37)
2. لَواقِحَ دُلَّحٍ بالماءِ سُحْمٍ تَئُجُّ الماءَ من خَلَلِ الخَصَاصِ
3. سَحابٍ ذَاتِ أسحَمَ مُكفَهِرٍّ تُوحِّي الأرضَ قَطْراً ذا افتِحَاصِ
4. تَآلفَ فَاستوى طَبَقاً دِكَاكاً مُحِيلاً دون مَثْعَبِهِ نَوَاصِ
5. كليلٍ مُظلِمِ الحَجَرَاتِ داجٍ بهيمٍ أو كبحرٍ ذي بَوَاصِ

6 . كأنَّ تبَسُّـــمَ الأنواء فيــهِ إذا ما انكـلَّ عن لَهِقٍ هُصَاصِ

7 . ولاحَ بها تبسُّــمُ واضِـحاتٍ يَزِينُ صفَائحَ الحُـــورِ القِلاصِ

8 . سَلِ الشّعراءَ هل سبَحُوا كسبْحِي بُحُورَ الشعْرِ أوغاصُوا مَغَاصِي

9 . لِسانِي بالقَرِيضِ وبالقَـوَافِي وبالأشعَارِ أمْهَرُ في الغَـــوَاصِ

10 . منَ الحُوتِ الذي في لُـجِّ بَـحْرٍ يُجِيدُ السَّبْـحَ في اللُـجَجِ القِمَـاصِ

11 . إذا ما بـــاصَ لاحَ بِصَفحتَيهِ وبيَّضَ في المَـكَرِّ وفي المَحَـاصِ

12 . تُلاوِصُ في المَدَاصِمُلا وِصاتٌ لهُ مَلْـصَى دَوَاجِـنَ بالمِــلاصِ

13 . بَنَاتُ الماءِ لـيسَ لــها حياةٌ إذا أخـرَجْـتَهُنَّ من المَــدَاصِ

14 . إذا قَبَضتْ عليهِ الكَـفُّ حيناًتَنَا عَصَ تَحـتَها أيَّ انتِعَــاصِ

15 . وبَاصَ ولاصَ من مَلَصٍ مَلاصٍ وحُوتُ البَحرِ أسودُ ذو مِــلاصِ

16 . كَلَونِ الماءِ أسودُ ذو قُشُورٍ نُسِجْنَ تَلاحُـمَ السَّرْدِ الـدِّلاصِ

17 . لَعَمْرُكَ إنَّنِي لأُعِـــفُّ نَفْسِي وأسْتُـــرُ بالتَّكَرُّمِ مـن خَصَاصِ

18 . وأُكْرِمُ والدِي وأصُونُ عِرضِي وأكْـرهُ أنْ أُعَدَّ مــن الحِرَاصِ

19 . إذا ما كنتَ لحَّـاس اًسَـؤولاً للمُـــــطَاعِ وذَا عِقاصِ

20 . لِزَادِ المَرْءِ آبَصَ من عُقَـابٍ وعند الباب أثقـلَ مـن رَصَّاصِ

21 . بكى البَوَّابُ منك وقالَ هل لي وهلْ للبابِ مِـنْ ذَا مِن خَــلاصِ

22 . فيُوشِكُ أن يَرَاكَ لهُ عَـدوّاً عَـدَاوَةَ مَـنْ يُلاطِـمُ أو يُناصِي

23 . إذا ما كانَ عِرضِي عندَ بَطْنِي فَـأينَ مِنَ أنْ أُسَبَّ بِـهِ مَنَــاصِي

24 . فَإن خَفَّتْ لِجُوعِ البطنِ رِجْلِي فَــدَقَّ اللهُ رِجْــلِي بالمُعَاصِ

فالأبيات السبعة الأولىتقوم على رسم صورة كليَّة، هي لمعان البرق في تلك السحابة الدانية المثقلة بالماء، التي يكشف ماؤها المتساقط الأرض لشدّته، وهو يلمع كما تلمع النجوم في السماء، وكأنما يكشف في لمعانه عن نار متلألئة ذات بريق.

أمّا الأبيات (8-16) فيشيد الشاعر فيها بمهارته الشعرية، وسبحه بحور الشعر، وغوصه فيه، مثلما يغوص ذلك الحوت الذي يجيد السباحة في لجَّة البحر، وكذلك يجيد الانفلات من الكف إذا قبضت عليه، وهي صورة طريفة لا نكاد نجد لها نظيراً في الأدب العربي كما يقول الدكتور محمد العبد(38).

أما الذي يعنينا هنا في هذا النصهي المشاكلة الصوتية وبيان العلاقة بين أصوات الصفير Sibilants، وبين المنظرين البارزين في القصيدة، وما يكملهما من صور خلفية تحاكي الحدث.

وتخضع دراسة الأصوات في الخطاب الشعري لعنصر الذوق لأنَّها لم تصل بعد إلى درجة الدقة والضبط العلميين، ولكن تراكم أصوات معينة أكثر من غيرها في البيت أو المقطوعة أو في النص يُعطي دلالة معينة، ويعد البيت الذي تتدرج فيه الإيقاعات على مختلف المستويات بؤرة تكثف سائر خصوصيات الوحدة وتختزلها، فقد تكررت أصوات الصفير (س، ز، ش، ص) في تلك الأبيات الستة عشر، ستاً وخمسين مرة (منها أربعة وثلاثون للصاد وحدها)، وهي نسبة عالية بلا شك، حتى يمكننا القول بأنَّ أصوات الصفير، ولا سيما الصاد هي المفتاح الصّوتي إلى معايشة تلك الصورة المتحركة المسموعة للبرق الذي يخترق السماء، والريح التي تلقح السحاب، والحوت الذي يغوص في لجة البحر، وهي حركة شديدة غالباً، مما يبرز غلبة الصاد في حروف الروي، وداخل الأبيات وارتفاع معدله عن سائر أصوات الصفير الأخرى؛ إذ هو من الأصوات المفخمة والمهموسة كذلك،

وقد ساعدت الصادَ في التعبير عن ذلك أصواتٌ مفخمة أخرى كالظاء والطاء والضاد (وتكررت في مجموعها سبع مرات) كما ساعدتها في ذلك أيضاً القاف، وهي صوت شديد مجهور (وتكررت عشر مرات).

وينبغي الالتفات هنا إلى مسألة أخرى بالغة الأهمية، وهي أنَّ أصوات الصفير لا تستمد قدرتها على المحاكاة من توزيعها في النص توزيعاً عددياً كمياً فحسب، بل تتميز جميعاً

بطول مدة الاستغراق الزمني للنطق بها إذا قورنت بالصوائت العربية الأخرى(39).

فطول مدة الاستغراق الزمني للنطق بأصوات الصفير يؤدي إلى إبراز قيمتها التصويتية، وقدرتها المميزة على محاكاة المسموعات، ولذلك قرر الدكتور كمال بشر أنَّ أجراس الأصوات وتفخيمها، لا يتحقق وصولها إلى السمع وتأثيرها فيه إلا بواسطة تحمل الصوت من مصدره الناطق، وهذه الواسطة هي الهواء، وما يتطلبه من ذبذبات موائمة لطبيعة الصوت المنطوق(40).

فأصوات الصفير في وضوحها ، وأصداؤها في أزيزها ، جعل لها وقعاً متميزاً مابين الأصوات الصوامت ، وكان ذلك فيما يبدو لنا نتيجة التصاقها في مخرج الصوت ، واصطكاكها في جهاز السمع ، ووقعها الحاصل مابين هذا الالتصاق وذلك الاصطكاك ، هذه الأصوات ذات الجرس الصارخ يلحظ لدى استعراضها أنَّها تؤدي مهمة الإعلان الصريح عن المراد في تأكيد الحقيقة ، وهي بذلك تعبر عن الشدة حيناً ، وعن العناية بالأمر حيناً آخر ، مما يشكل نغماً صارماً في الصوت ، وأزيزاً مشدداً لدى السمع ، يخلصان إلى دلالة اللفظ في إرادته الاستعمالية ، ومؤداه عند إطلاقه في مضان المعنى .

وإذا تأملنا (المفتاح الصوتي) الجوهري للجو العام في نصِّ عبيد بن الأبرص، وهو الصاد، وهو صوت مهموس كذلك، لرأيناه وقد اختلف توزيعه ارتفاعاً وانخفاضاً، مثله في ذلك مثل اللون الواحد إذا وُزِّعَ على لوحة فنية بنسب متفاوتة.

ففي وصف حركة الحوت السريعة المترددة في الماء في البيتين (11-12) من القصيدة،في قوله:

إذا ما باص لاح بصفحتيه وبيضُ في المكر وفي المحاص

تلاوص في المداص ملاوصات لـه ملصـى دواجـــن بالملاص

وعبر الشاعر عن انزلاق الحوت عند محاولة القبض عليه في قوله:

وبـاص ولاص من ملصى ملاص وحوت البحر أسود ذو ملاص

فقد ارتفع معدل تكرار الصاد، وانتشر على هذا النحو.

فعلى الرغم من ازدحام تكرار صوت الصاد في ألفاظ الأبيات السابقة مما جعل اللسان يتحرك حركةً سريعةً داخل الفم، وهذه الحركة أشبهت حركة الحوت داخل الماء ولكن قليلاً من التفكير يهدينا إلى أنَّ هذا التزاحم لازم فنياً، لأنَّه ينطبق على الصورة التي يريد الشاعر أن يرسمها لحركة الحوت السريعة والقوية في الماء،وهي صورة غنية رائعة حاشدة مزدحمة، إذا أجدنا تصورها واستمعنا إلى (باص ــ المحاص ـ تلاوص ـ لاص ـ المداص ـ ملاوصات ـ الملاص ـ ملصى) أدركنا كيف أنَّها تقتضي هذا الازدحام، ربَّما نستحيله ونتلذذ بتعثر لساننا في النطق به، وهو حقاً تكرار وتزاحم، ولكن ما أقوى تشاكله مع الصورة المرسومة، في النص.

وكذلك بدت لنا أصوات الصفير في النص (السين، والشين، والصاد) وهي مهموسة متماثلة مؤدية دوراً يحاكي الحدث، وهو معايشة الصورة المتحركة المسموعة للبرق الذي يخترق السماء، والريح التي تلقح السحاب والحوت الذي يغوص في لجة البحر، فهي حركة شديدة غالباً.

فما الذي يعطي الأصوات المهموسة إذا استعملت بوفرة في سياق النص هذا الدور، ولتفسير ذلك سببان:

أحدهما: هو طبيعة المهموس من الأصوات المتميزة بالجهد، فالأحرف المهموسة مجهدة للنفس، لأنَّنا نحتاج للنطق بها إلى قدر من هواء الرئتين أكبر مما تتطلبه نظائرها المجهورة كما يقول الدكتور شيوع الأصوات المهموسة في الكلام لا تكاد تزيد على الخُمس، أو عشرين بالمائة منه، في حين أنَّ أربعة أخماس الكلام تتكوّن من أصوات مجهورة(42). فإذا استعملت في السياق بكثرة تجاوزت حدّها العادي، وتعلقت بها دلالة خاصة.إبراهيم أنيس(41) فإذا كثرت في السياق، تضاعف الجهد، وانحصر فيها الاهتمام.

أما الآخرفهو قلة شيوع المهموس من الأصوات بالنسبة إلى المجهور، فقد برهن الاستقراء على أنَّ نسبة

خاتمة البحث

إنَّ دراسة ظاهرة المشاكلة الصوتية في بنية النص تنطوي تحت جماليات الصوت، وهو الإحساس الجمالي الحركي، والتخيل الجمالي الحركي، لنصل إلى التلاؤم بين المعاني من حيث التناسق، والتوافق الصوتي المتمثل في المشاكلة عندما تتوفر في نص ما، كما تبين أنَّ مفهوم المشاكلة في اللغة العربية يعني التوافق والتشابه والتماثل بين شيئين، فيجري أحدهما مجرى الآخر.

وكذلك تبين أنَّ المماثلة الصوتية تعد من أبرز مظاهر التشاكل في العربية بسبب الانسجام الصوتي الحاصل بين كل صوتين متجاورين، لذا فإنَّ المشاكلة الصوتية في بنية النص لا تؤدي دورها المطلوب إلابملاءمة اللفظ لنظيره من حيث حسن الموقع، الأمر الذي يكسب الكلام رونقاً وحلاوةً ترتاح بهما النفس.

شرح مفردات النص:

وقد اعتمدت في شرح هذه المفردات على شرح د. أشرف أحمد عدرة على شرحه لديوان عبيد بن الأبرص ص 72 وما بعدها :

1 ـ الأرق: قلة النوم، النشاص: السحاب المرتفع بعضه فوق بعض، تلألأ: لمع، المملأة: أي المملوءة ماءً، غصاص: أي غصت بالماء.

المعنى: ذهب عني النوم لكثرة لمعان البرق في سحبٍ كثيفة قد غصت بالماء.

2 ـ شرح المفردات: اللواقح: السحب التي لقحت من الريح، الدُلَّح: المثقلة بالماء، السحم: السود، تثج: تصب، من خلل الخصاص: من بين الغيوم.

المعني: لقَّحت الرياحُ الغيومَ السوداء المثقلة بالماء، فهطل المطرمنها بغزارة.

3 ـ شرح المفردات: الأسحم: الأسود، المكفهرُّ: المتلبد المسود، توحي: تعجَّل، القطر: المطر، ذا افتحاص: أي أنه لقوَّته يقلب التراب ويكشفه.

المعنى: هذه السحب السوداء المتلبدة قد أمطرت بشدَّة فكشف مطرها تراب الأرض.

4 ـ شرح المفردات: الطبق: الغطاء، الدكاك: المستوية، المحيل: الذي أتى عليه حول،أي سنة، المثعب: مجرى الماء، النواصي: الأعالي.

المعنى: تجمع السحاب فشكَّل غطاءً واسعاً طويلاً، وأخذ المطر ينهمر، فيما الماء يجريعلى وجه الأرض التي لم تعد تستوعب كثرته.

5 ـ شرح المفردات: الحَجَرات: جمع حَجْرة، وهي الناحية، الداجي: المظلم، البهيم: الشديد السواد، البواص: جمع البوص، وهو البعد.

المعنى: شبه لون السحاب الأسود بالليل المظلم البهيم، وماء السحاب بالبحر الواسع

6 ـ شرح المفردات: الأنواء: جمع نوء، وهو النجم المائل للغروب، انكلَّ: لمع، اللهق: الشديد البياض، الهصاص: المتلألئ.

المعنى: إن لمعان البرق بين السحب البيضاء المثقلة ماءً شبيه بتبسم النجوم.

7 ـ شرح المفردات: الواحات: الأسنان البيض التي تبدو عند الضحك، الصفائح: أراد بها الوجوه، الحور: الجميلات، القلاص: جمع قلوص، وهي الناقة الشابة، وأراد بها هنا الأنثى الشابة،

المعنى: شبَّه بياض السحب ببياض أسنان فتيات جميلات يبتسمن ويضحكن.

8 ـ ثرح المفردات: غاصوا: عمَّقوا

المعنى: يفتخر بعبقريته الشعرية، وبمعانيه العميقة التي لم يبلغها أيُّ شاعر.

9 ـ المعنى: يتباهى بمهارته الشعرية، ويعدُّ نفسه أشعر الشعراء.

10 ـ شرح المفردات: اللُجّ: مفرد اللجج، وهو معظم الماء، القماص: المضطربة.

المعنى: يشبِّه مهارته الشعرية بحركات الحوت في المياه، وهي صورة غريبة لا نجد مثلها في الأدب العربي.

11 ـ شرح المفردات: باص: أسرع، المحاص: الرجوع أو المفر، وهو ضد المكرّ.

المعنى: عندما يسرع في الماء كرَّاً أو فرَّاً يحدث موجاً أبيض.

12 ـ شرح المفردات: تلاوص: تخادع، المداص: المغاص من الماء، الملص: جمع مليص، وهو السمكة، دواجن: مقيمة، الملاص: المنسلتة.

المعنى: تخافه الأسماك وهي في موضعها في البحر، وتحادر أن ينقضَّ عليها فيبتلعها، وفي ذلك إشارة إلى خوف الشعراء من مباراته في الشعر.

13 ـ شرح المفردات: بنات الماء: أي الأسماك.

المعنى: لا يعيش السمك إلا في الماء، ويموت إذا أُخرج منه.

14 ـ شرح المفردات: تناعص: تحرَّك

المعنى: إذا قبض عليه أحد تحرك في يده ليفلت منها.

15 ـ شرح المفردات: باص: هرب، لاص: حاد، الملص: الزَّلق، ملاص: تخلُّص وانفلات.

المعنى: يظل يتحرك ويتخفى بغية الانزلاق من الكف كي لا تستمكن من القبض عليه

16 ـ شرح المفردات: السّرد: الدرع من الحلق، الدلاص: اللين اللماع.

المعنى: لونه أسود، وتغطي جلده قشور ناعمة متلاحمة النسج، تشبه نسج زرر الدرع الملساء البراقة.

17 ـ شرح المفردات: الخَصَاص: الفقر. المعنى: يفتخر بعفته وكرمه وعزة نفسه.

18 ـ شرح المفردات: العِرض: الشرف، الحراص: جمع حريص، وهو البخيل.

المعنى: يطيع والده ويصون عِرضه، ويكره أن يكون في عداد البخلاء.

19 ـ شرح المفردات: اللحَّاس: الذي يلحس الطعام بلسانه كي لا يترك فيه شيئاً، العقاص: البخل .

المعنى: إذا كنت شديد البخل دنيء النفس.

20 ـ المعنى: آبص: أنشط .

المعنى: كنت كالعقاب في تناول صيده، ينفضُّ الناس من حوك لفظاظتك، وبخلك وبخلك وثقل وجودك بينهم.

21 ـ المعنى: يستثقلك الناس، ويحاولون التخلص منك بكل حيلة.

22 ـ شرح المفردات: يلاطم: يضارب ، يناصي: يمسك كل منها بناصية الآخر.

المعنى: يتخذك الناس عدوًّا لهم، ويعاملونك معاملة الأعداء.

23 ـ شرح المفردات: المناص: الملجأ والمفر.

المعنى: إذا استرخصت عِرضي في سبيل مأكلي ومشربي تعرضت للمذلة والهوان والسِّباب.

24 ـ شرح المفردات: المعاص: التواء في عصب الرِّجل.

المعنى: إذا م أسعَ لتأمين حاجاتي الحياتية، تعرضت لنقمة الله وغضبه، ولبلاء منه شديد.

الهوامش:

(1) صبحي إبراهيم الفقي (دكتور) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 2000 م 249/2 .

(2) إبراهيم أنيس (دكتور) دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية،ط4 1980م ص191.

(3) بناني الصغير (دكتور) النظريات اللسانية والبلاغة عند العرب، دار الحداثة بيروت، 1986 م ص342.

(4) ابن منظور (محمد بن مكرم) لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط3 1999 م مادة (شكل)

(5) الزجاج (أبو إسحاق إبراهيم بن السري)، إعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي القاهرة، ودار الكتاب اللبناني بيروت.

(6) ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جني)، الخصائص، باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3 1987 م 129/2 .

(7) المرجع السابق، باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، 147/2 .

(8) المرجع نفسه، 147/2 .

(9) المرجع نفسه، 149/2.

(10) المرجع نفسه، 151/2.

(11) المرجع نفسه، 149/2.

(12) المرجع نفسه، 151/2.

(13) المرجع نفسه، 154/2.

(14) المرجع نفسه، 155/2.

(15) النقزان: هو الوثب، يقال: نقز الظبي: أي وثب صعداً.

(16) ابن جني، الخصائص، باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني، 154/2.

(17) سيبويه، الكتاب، 2/ 218 .

(18) الخصائص، 155/2 .

(19) البشكى، يقال: امرأة بشكى اليدين والعمل، أي: خفيفة سريعة.

(20) الجمزى: يقال: حمار جمزى، أي: سريعة

(21) الولقى: عدو للناقة فيه شدَّة.

(22) الخصائص، 155/2 .

(23) المرجع السابق، 155/2 .

(24) المرجع نفسه، 127/2 .

(25) المرجع نفسه، باب تلاقي المعاني على اختلاف الحروف والمباني120/2.

(26) المرجع نفسه، باب في الاشتقاق الأكبر، 139/2 .

(27) المرجع نفسه، باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني، 152/2 .

(28) المرجع نفسه، 152/2 .

(29) المرجع نفسه، 157/2 .

(30) المرجع نفسه، 158/2 .

(31) السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)الإتقان في علوم القرآن، مركز البحوث والدراسات بمكتبة مصطفى الباز،مكة المكرمة، 1996م ،173/2 .

(32) محمد سويرتي(دكتور) اللغة ودلالاتها، عالم الفكر، مجلة تصدر عن المجلس الوطني بدولة الكويت، بدون تاريخ ص40 .

(33) أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، المكتبة المحمودية التجارية، 1972م ص335

(34) سورة الشورى، آية 40 .

(35) صلاح فضل (دكتور)، بلاغة الخطاب وعلم النص، مجلة عالم المعرفة الكويت، عدد 164 أغسطس 1992م ص220 .

(36) محمد الماكري (دكتور) مدخل لتحليل ظاهرتي الشكل والخطاب، المركز الثقافي العربي بيروت، ط1 1991م ص129 .

(37) عبيد بن الأبرص، ديوانه، شرح أأشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي بيروت، ط1 1994م ص72 .

(38) محمد العبد(دكتور) ، إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي، دار الفكر العربي القاهرة، ص24 .

(39) المرجع السابق، ص25 .

(40) كمال بشر (دكتور)، علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، 2000م، ص129 .

(41) إبراهيم أنيس (دكتور) موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2 1953م ص32 .

(42) إبراهيم أنيس (دكتور) الأصوات اللغوية، مكتبة نهضة مصر، بدون تاريخ، ص23 .

مراجع البحث:

1 ـ إبراهيم أنيس (دكتور):

ـ الأصوات اللغوية، مكتبة نهضة مصر، بدون تاريخ.

ـ دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية،ط4 1980م.

ـ موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2 1953م.

2 ـ أحمد مصطفى المراغي:

ـ علوم البلاغة، المكتبة المحمودية التجارية1972م.

3 ـ بناني الصغير (دكتور):

ـ النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب، دار الحداثة بيروت، 1986 م.

4 ـ ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جني):

ـ الخصائص، باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ، ط3 1987 م.

5 ـ الزجاج (أبو إسحاق إبراهيم بن السري):

ـ إعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي ، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني بيروت.

6 ـ صبحي إبراهيم الفقي (دكتور):

ـ علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ، ط1 2000 م.

7 ـ صلاح فضل (دكتور):

بلاغة الخطاب وعلم النص، مجلة عالم المعرفة الكويت، عدد 164 أغسطس 1992م

8 ـ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن):

الإتقان في علوم القرآن، مركز البحوث والدراسات بمكتبة مصطفى الباز،مكة المكرمة، 1996م.

9 ـ عبيد بن الأبرص:

ديوانه، شرح أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي بيروت، ط1 1994م.

10 ـ كمال بشر (دكتور):

علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، 2000م.

11 ـ محمد سويرتي(دكتور):

ـ اللغة ودلالاتها، عالم الفكر، مجلة تصدر عن المجلس الوطني بدولة الكويت، بدون تاريخ.

12 ـ محمد العبد(دكتور):

إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي، دار الفكر العربي القاهرة.

13 ـ محمد الماكري (دكتور):

مدخل لتحليل ظاهرتي الشكل والخطاب، المركز الثقافي العربي بيروت، ط1 1991م

14 ـ ابن منظور (محمد بن مكرم):

لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط3 1999 م